المبحث الثاني

مفهوم النقد الثقافي وطبيعته

إذا كانت (الشعرية) هذا المصطلح الخطر الذي ظهر مع آراء الشكلانيين الروس ومن تبعهم من روّاد النقد النصوصي، هي العنوان المركزي الرئيس الذي غالباً ما ينظر إليه لدى أكثر دارسي النظرية الأدبية، بوصفه العلامة التي تميّز النص الأدبي عن غيره من النصوص الأخرى، فإن تطوّر مفهوم (الشعرية) بعد تعدد المنهجيات الشكلانية جعلها تنفتح على الخطابات الأخرى غير الأدبية وتشتغل عليها، إذ ((لم يعد مفهوم الشعرية، يخصّ (درجات الشاعرية) في الشعر، بل أصبح يخصّ النص الأدبي والفنّي والثقافي: (شعرية الرسم، شعرية السينما، شعرية النحت، شعرية السرد)، كذلك يمكن البحث عن شعرية ما في النص الثقافي)) [1]، وبهذا يكون النص الثقافي على مسافة واحدة من النص الأدبي فيما يتعلّق بانطوائه على شعرية تجعله قابلاً للقراءة النقدية مثله مثل النص الأدبي، على النحو الذي يفسّر إمكانية وجود نقد ثقافي يقرأ النص الثقافي والنص الأدبي، بما ينطوي كلّ منهما على قيمة شعرية ذات تأثير وتأثر في/على الخارج النصي والداخل النصي معاً.

انطلق عز الدين المناصرة من رؤية خاصة ذات طبيعة تاريخية ومعرفية في آن معاً لتحديد مفهوم النقد الثقافي ومقاربة طبيعته المنهجية، إذ بعد استقراء تاريخي ومنهجي شامل تمكّن من صياغة هذا المفهوم وطبيعته عبر مجموعة من الملاحظات سجّلها على النحو الآتي بقوله: ((فيما يلي نقدم بعض الملاحظات حول النقد الثقافي:

أولا: يرتبط النقد الثقافي بحقول الثقافة المتنوعة، مستفيداً من مناهج العلوم الإنسانية: الفلسفة والتاريخ والسياسة والفكر وعلم الاجتماع وعلم النفس، والبيولوجيا، والألسنيات، والنقد الأدبي، والأنثربولوجيا، وغيرها، حيث قراءة النصوص، قراءة تتضمّن مفهوم قراءة البنية، وأهمية الإحالة إلى مرجعيات من داخل النص وخارجه، لتكشف (المسكوت عنه) في النص، أي قراءة البنيات السطحية الظاهرية للنص، قراءة البنيات العميقة، وتفسير الدلالات وتأويلها في إطار، لا يجعل النص مجرد مجموعة من التصنيفات الشكلية، بل يقرأ النقد الثقافي تحولات هذه البنيات ومرجعياتها، ووظائفها وأثرها الاتصالي وأشكاله، أي أن النقد الثقافي يقرا تحولات النص باتجاه المجتمع الثقافي الذي أنتجه، في زمان ومكان

(1) علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب): 7.

معين، ومدى انطلاقه وحركته نحو الانفتاح على العالم أو الانغلاق على نفسه))[1].

النقد الثقافي يتجاوز حدود البنية النصية في انغلاقها الألسني وتقوقعها البنيوي، ليفتحها على أفق واسع وحيوي ومتجدد من التدليل والتشكيل، يقرأ فيه النص قراءة ثقافية متعددة تحيل على مجتمع التلقي في مجاله الثقافي الفاعل، وتستشرف قوّة تأثير الفعل الثقافي النصّي على السير في طريق التغيير والتطوير والتمثيل.

أي أنّ الحساسية التواصلية التي يتمثلها النقد الثقافي ويشتغل عليها ـ بحسب ملاحظات المناصرة ـ تتشكّل عبر تطور مفهوم البنية عند البنيويين، لتنفتح على فضاء شبكي كثيف وغزير ومتعدد ومتنوع من العلاقات المتعاضدة والمتداخلة لا تتوقف بحسب مفهوم النقد الثقافي عند حدود البنية، إذ يعالجها المناصرة بملاحظة أخرى مفادها:

((**ثانياً**: إذا كان ماركس أول من أشار إلى مفهوم البنية، وإلى العلاقة بين البنية الفوقية الذهنية والبنية التحتية المادية، إلا أنه لم يقرأ تجليات هذه العلاقة أو العلاقات، ولم يستخرج بالتالي قوانين محددة تحكمها، لكن الماركسيين: غرامشي، لوكاتش، غولدمان، حاولوا ذلك في مجالات محدودة، وكانت التجربة المضادة، أي تجربة الشكلانيين الروس، تجربة رائدة في هذا المجال، مجال الكشف عن أنساق أو بنيات، لكنهم أخطأوا مرتين: أولاً: حين حصروا عملية الكشف في النصوص الأدبية فقط. وثانياً: لأنهم حوّلوا هذه المكتشفات إلى تصنيفات هيكلية شكلية. ثم جاءت البنيوية الفرنسية (بارت، ديريدا، فوكو، كريستيفا، وتودوروف)، إضافة إلى السوسيولوجي بيير بورديو. وهنا اتسع النقد الثقافي، ليشمل الحدّين اللذين يؤرّقان مشكلة تحديد النقد الثقافي، أي: التوسّع والتضييق. ثم جاء جيرار جينيت، ليطرح مفهوم إلـ hypertext، الذي يفتح المجال أمام توسّع لا حدود له في مجال تغيّر امتدادات النص، يربط النص، شبكيّاً، كما هو الحال في مفهوم الاتصال في الأنترنت)) [2]، على النحو الذي يجعل من آلية النقد الثقافي آلية شاملة نصياً تتوسع في التعامل مع مفهوم البنية خارج السياق اللغوي، لكنه مع ذلك فإن الإشكال المفهومي في وضع الحدود وضبط المصطلح للنقد الثقافي في فضاء اشتغاله الشبكي المتداخل لم يكن أبداً سهلاً، حيث جوبهت هذه المسألة بأسئلة كبيرة تتعلق

(1) الهويات والتعددية اللغوية:11-12.
(2) الهويات والتعددية اللغوية: 12.

بالمفهوم والمصطلح والآلية وحقل الاشتغال وغيرها، جعلت المناصرة يتوجه بملاحظته الثالثة حول النقد الثقافي من خلال طرح جملة أسئلة تقارب بجديّة حدود وإشكالات وقضايا هذا النقد بقوله:

((**ثالثاً**: وهكذا بقيت مشكلة تحديد مفهوم (النقد الثقافي) قائمة أمام أسئلة من نوع:

- هل النقد الثقافي منهج في قراءة النصوص، أم حقل لتوسيع دلالات النص، بالإحالة إلى الخارج، وهل يمكن أن يتخلّى النصّ عن هويته لصالح هويات أخرى.
- ما الحدود بين داخل النص وخارجه، وما مع الخارج، وما امتداداته وتغيراته.
- هل استخدام حقول العلوم الإنسانية في تحليلات النصوص، يهدف لتفكيك النص وتفسيره وتأويله في سياقه الاجتماعي والتاريخي والمكاني والفكري، أو أنّ الهدف هو استعمال النصوص، بما يفيد مناهج العلوم الإنسانية نفسها، وهنا يتم تأويل النص بإسقاط المعارف الخارجية عليه، أي أن النص، يصبح مجرد ذريعة.
- ما حدود النقد الأدبي الذي يستعمل الإحالة إلى المرجع في حدود معلومة، وما الفارق بين الإحالة والمرجع في النقد الأدبي، وبين التوسّع في المرجعيات لدى النقد الثقافي.
- هل مجال قراءة النصوص هو ثنائية: قراءة الرسمي والمسكوت عنه، إي قراءة نصوص الحكومة والمعارضة فقط، أم أنّ القراءة تتسع لقراءة نصوص الأغلبية الصامتة التي تعبر عن الحساسية الشعبية، خارج الحكومة والمعارضة، أم أن مجال النقد الثقافي هو قراءة منظور النص من كل جوانبه، وقراءة العلاقات بين البنيات نفسها في إطار عالم مفتوح، إي قراءة الواحد المتعدد.)) [1].

ومن خلال ما تقدم يمكن وضع حدود بين المنهج السياقي والمنهج الثقافي من جهة، كون النقد السياقي يهتم بما هو خارج النص، الأديب، البيئة، الوضع النفسي، المجتمع وغيرها من الأمور التي تتصل بحياة الأديب، وهذا أيضاً يعكس المعرفة المسبقة على تحليل النص، في حين المنهج الثقافي لايعنى بما هو خارج النص إلا من خلال معطيات النص، فعند المنهج السياقي ماهو خارج النص أولاً والنص ثانياً، في حين المنهج الثقافي عد النص أولاً والخارج ثانياً.

يعطي المناصرة للهوية ـ بأفقها الواسع والشامل ـ أهمية بالغة في مقاربة مفهوم النقد الثقافي، لما للهوية عنده من قوّة حضور وتمركز ثقافي في الشكل

(1) الهويات والتعددية اللغوية: 12-13.

والفعالية والمفهوم والمصطلح والنظرية، تقترن اقتراناً وثيقاً وجوهرياً بالنقد الثقافي، إذ يوليها ملاحظة مركزية في هذا السياق عبر مقاربته الرابعة ((رابعاً: تصلح (الهوية) مجالاً مهماً للنقد الثقافي. وهنا يفترض أن نستعين بكل مناهج العلوم الإنسانية الممكنة، ليس في الزاوية النظرية فحسب، بل ننطلق بالعكس، أي ننطلق من واقع الهويات في العالم في تشكّلها ونموّها واندثارها ومقاومتها وانغلاقها وانفتاحها)) [1].

وهو ما يفتح النقد الثقافي ضمن إطار هذا المفهوم على مساحات منهجية تتعلق بجميع العلوم الإنسانية، التي يمكن أن يكون لها حصة وفعل وتأثير في تشكّل النص الأدبي والثقافي.

ثم يذهب المناصرة في ملاحظته الخامسة في هذا الصدد إلى الخلفية التاريخية المؤسسة والرائدة لمفهوم النقد الثقافي في نسخته العربية، التي هي بطبيعة الحال متأثرة بالنسخة الغربية لكنها عبر إدوارد سعيد تنتمي إلى جذور عربية صرف عند الكثير من روّاد النهضة العربية والتنويريين في القرنين التاسع عشر والعشرين، إذ يقول:

((خامساً: يبدو تأثير فوكو وفانون ورايموند وليامز واضحاً في كتابات إدوارد سعيد، إلا أن إدوارد سعيد هو الأب الروحي للنقد الثقافي في العالم العربي، قبل ترجمة أعماله، وبعد الترجمة، منذ (الاستشراق) عام 1978، بمفاهيمه الأورو - أمريكية، لكن سعيدا، حصر قراءته الطباقية (الاستعمار والمقاومة مثلاً)، ولم يتعمّق في قراءة بعض الظواهر الثقافية العربية، فجاء تحليله أحياناً مشوشاً ومرتبكاً وخاصاً وأحادياً، وإذا كان من الممكن أن نسمي حسين مروة وعبد الرحمن الكواكبي وسيّد قطب ومحمد عابد الجابري وحسن حنفي وصادق جلال العظم والطيب تيزيني وساطع الحصري، على سبيل المثال مفكرين حقيقيين، مارسوا النقد الثقافي من زوايا فلسفية فكرية، دون أن يقدّموا تنظيرات حول النقد الثقافي، إلا أن طه حسين ومالك بن نبي، عل سبيل المثال، مارسا النقد الثقافي، نظرة وتطبيقاً، إلا أن صفة (مفكر!)، لا يمكن أن تطلق على باحثين في الفكر، يتسمون بالجمع والاقتراض السلبي والتحليل السطحي. كما أن بعض الذين ينتقدون استعمال (الفكر السياسي) في تحليل الظواهر الثقافية، عند إدوارد سعيد يتجاهلون أن السياسة علم مثل العلوم الإنسانية الأخرى تقرأ أحد جوانب النص. فالفلسفة والفكر والسياسة من عناصر التحليل، وهي أيضاً حقول من حقول العلوم الإنسانية)) [2].

وعلى الرغم من الحضور الإجرائي للنقد الثقافي في الثقافة العربية الحديثة على النحو الذي بيّنه المناصرة لدى الكثير من مثقفي النهضة العربية وتنويريها، فإن

---

(1) الهويات والتعددية اللغوية: 13.

(2) الهويات والتعددية اللغوية:13-14.

المفهوم على الصعيد النظري ما زال ملبساً، ورؤيته النقدية النظرية لم تتبلور بعد على النحو المطلوب ((يبقى أن نؤكّد أن النقد الثقافي في العالم العربي مورس منذ مطلع القرن العشرين تطبيقاً، لكنّ نظرية النقد الثقافي لم تتبلور بعد، وما تزال قريبة من مجرد نقل بعض الأفكار الأورو ـ أمريكية. كما أن النقد الثقافي يميل إلى الاستقلال عن النقد الأدبي، لكن النقد الأدبي ـ كما نتوقع ـ لن يصبح فرعاً من فروع النقد الثقافي لأسباب عديدة، تعود إلى طبيعة الاختلاف بين الفرعين، رغم اشتراكهما في بعض العناصر التي تمركز هوية كلّ منهما حول خصائص أكبر)) [1].

يتضح هنا أن الناقد عز الدين المناصرة وهو يسعى إلى وضع حدود مفهومية للنقد الثقافي، وكشف طبيعة هذا النقد، من خلال طروحات من أدرجهم في دائرة النقاد الثقافيين العرب، يفتح أفق النقد الثقافي على صعيد المفهوم على تعددية منهجية لا يمكن أن تقتصر على رؤية محددة.

إن هذا الأمر بلا شك يكشف عن طبيعة الرؤية المنهجية الخاصة التي يؤمن بها المناصرة ويشتغل عليها أساساً، فهو في ممارساته النقدية المتنوعة يتبنّى على نحو ما هذا الأنموذج النقدي، ويعتقد أنه الأصلح والأكثر استجابة لحقيقة النص الأدبي والثقافي بوصفه منتجاً لهذا النص أيضاً.

(1) م.ن: 14.